

التعليم الإسلامي

دراسة تاريخية تحليلية

إعداد الدكتور عبد الفتاح أحمد حجاج

أستاذ مشارك بقسم أصول التربية - كلية التربية - جامعة الإسكندرية

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » *

تقديم :

تستهدف هذه الدراسة تقديم عرض تحليلي لتطور التعليم الإسلامي . وفي ذلك فإنها تستند إلى مسلمة أساسية مؤداها أنه في تعاليم الإسلام هناك أصولاً وركائز تصلح لكي تكون دعائم نظمنا التعليمية فكراً وتطبيقاً وأنها تكفل لنا بلوغ مانترجيه من غايات وما نصبو إليه من أهداف . وعليه فإن هذه الدراسة تعتمد على الاستقراء بما يتضمنه من تحليل وربط الظواهر بمسبباتها كأسلوب علمي يمكن أن نتوصل به إلى أنسب النتائج . بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الدراسة تحاول أيضاً تلمس معالم الطريق ورسم إطار عام لدور التعليم — بمعناه الأعم والأشمل — في بعث الشخصية الحضارية الإسلامية في العصر الحديث .

التاريخ وأهمية الدراسات التاريخية :

يتعين على الباحث لدى دراسته لأي جانب من جوانب النشاط البشري إن

* سورة المجادلة آية ١١ .

يعزى الظاهرة التي يدرسها لأصولها التاريخية . ذلك لأن التاريخ هو الذى يقدم التفسير لوجود الظاهرة في شكلها الآتي كما وأن الدراسة التاريخية المتعمقة يمكن أن تلقى ضوءاً أو تسهم في التوصل إلى مؤشرات عن مسار تطور الظاهرة في المستقبل (١) . ومن ثم فإن التاريخ يفيد في توضيح ماذا يجب ان نتبع وماذا يتعين علينا ان نتجنب . هذا ويشير الكثير من المؤرخين إلى أن كل شئ في الوجود طبيعته التغير ، ومن ثم تبرز أهمية الدراسات التاريخية إذ أنها تستهدف إرشاد الأفراد والجماعات إلى الطريق الذى ينبغي عليهم أن يسلكوه وما يجب عليهم القيام به ومتى وكيف (٢) . « فالتاريخ وإن كان أحداثاً أو وقائع غبرت إلا أن غايته هي جلاء الحاضر والكشف عن حقيقته ، ولا يتسنى ذلك مالم ينفذ المؤرخ إلى حقيقة النزعات التي تسوق الوقائع والأحداث حتى (تم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرويه في احوال الدين والدنيا) . كما يقول ابن خلدون » (٣) .

وعليه يمكن القول أن تاريخ التربية أو التعليم يقصد به سجل الأساليب التي تتبعها المجتمعات وصولاً إلى تحقيق أهدافها في الحياة ، كما انه سجل السبل التي يتبعها أى مجتمع بطريقة واعية لتربية أفرادها والحفاظ على مثله وتقاليده ، والنهوض بالمجتمع وزيادة رفاهيته ومن هذا المنظور فإن تاريخ التربية أو التعليم يتضمن كل شئ قام به الإنسان بغرض تحقيق أهداف المجتمع عن طريق التعليم باوسع وأشمل معاني الكلمة .

هذا ومن الملاحظ أن التغيرات في تاريخ التربية شأنها شأن التغيرات في التاريخ — بصفة عامة — تظهر ببطء ، وعليه فإن التجديدات في التربية قد تكون أموراً قديمة في جوهرها تناولتها يد التعديل مما يبرز بصورة أوضح اتباع المنهج التاريخي في دراسة شئون التعليم وتوضح أهمية دراسة تاريخ التربية في أنه

(1) Haggag, A.A.; Primary Teacher Training in England, France and U.A.R., M.Phil., Thesis. University of Reading, 1967, P. 12.

(2) Knight, E.W.; Twenty centuries of Education, (Boston : Ginn, 1940), P. 3.

(٣) سعد مرسى احمد، سعيد اسماعيل علي : تاريخ التربية والتعليم (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٤م)

للوصول إلى معرفة الظواهرات التعليمية القائمة فعلا ومحاولة تقويمها وصولا إلى الأفضل ، لابد من معرفة أصولها ومدى ماطراً عليها من تغير . وفي الحقيقة فان تتبع أصول وتطور المؤسسات التعليمية المختلفة توضح بصورة أكبر أهداف هذه المؤسسات ومدى قدرتها على تحقيقها ونواحي القصور ووسائل علاجها .

بالإضافة إلى ذلك فان الإمام بتاريخ التربية أمر حيوى وجوهري قبل الإقدام على أى إصلاح تعليمى ومدخل ذلك هو الرغبة الصادقة من جانب العاملين في الحقل التعليمى على تقويم وإعادة تقويم النظريات والممارسات التى يقوم عملهم على أساسها وذلك في ضوء الماضى ، وبصفة خاصة عند التعرض لصياغة سياسة تعليمية طبقا للمفاهيم الحديثة . وتبرز أهمية الدراسات التاريخية بالنظر إلى أنه حتى في عصرنا هذا والذي يتسم بالانفتاح على العلوم التجريبية والتكنولوجيا على أساس من التفكير العلمى ، فإن القضايا الاجتماعية عموما والتعليم بوجه خاص لازالت تعتمد في علاجها - إلى حد كبير - على النظرة التاريخية . وفي المجال التعليمى فإنه يمكن القول أن الدراسة التاريخية هى حليف وعون للأسلوب العلمى وليست نقيضا له ، إذ أن الدراسات التاريخية تسهم في توسيع مدارك القائمين على أمور التعليم وتمكنهم من تجنب أخطاء الماضى فضلا عن تعميق اهتمامهم الثقافية . وعليه فإنه يمكن القول أن تاريخ التربية هو بحق تاريخ الحضارة باعتباره تاريخ المثل والقيم المتجددة وقصة وسائل تقدم الإنسان ورفاهيته .

وإذا كان ماتقدم يقوم شاهدا على مدى أهمية الدراسات التاريخية عموما ودراسة تاريخ شئون التربية والتعليم بوجه خاص ، فإننا معشر المسلمين في ميسس الحاجة في وقتنا الحاضر للعودة إلى أصولنا التربوية واستقراء واستكناه ما تحويه لعل في ذلك هداية لنا لصوغ نظم تعليمية كفيلة بان تعيد إلينا أصالتنا وتسهم في البعث الحضارى للمجتمع الإسلامى . وفي ذلك نتساءل «هل التربية الجارية في الوقت الحاضر في الدول الإسلامية معبرة عن الإسلام ومحقة له ، بحيث يتخرج الطالب في المدارس الموجودة حاليا مسلما بمعنى الكلمة كما كان المسلمون منذ عشرة قرون ؟ أم أن النظم الحديثة أو (التربية الحديثة) تنجاني العالم الإسلامية

وتتأني معها ؟ واذا شئنا ان يتم التوفيق بين الإسلام والتربية الحديثة فعلى أى أساس يكون ؟ وكيف يمكن ان نصنع في الوقت الحاضر تربية اسلامية ؟ كل هذه الاسئلة لن يتيسر الاجابه عنها الا بالرجوع إلى التربية الإسلامية في تاريخها ، للاسترشاد بالاساليب الناجحة التى اتبعت قديما ، ومحاولة تطبيقها اليوم ، أو تعديلها بما يتفق مع نمو الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية «(٤) .

مفهوم التعليم في الإسلام :

ليس من شك في أن الإسلام — بالنسبة للمسلمين — يعنى نمطا حضاريا وأسلوب نظر إلى الكون المحيط بهم ، وليس مجرد دين بالمعنى العادى المحدود . ومن وجهة النظر الإسلامية فإنه ليس هناك أى جانب من جوانب الحياة الفردية أو الجمعية التى لا يمكن اعتبارها تعبيراً عن الإسلام أو تضميناً له . وحيث أن النظرة الإسلامية إلى الوجود لها ودوما سمة التكامل والشمول متخذة من الإيمان بالدين مركزاً ومحوراً لها تتنظم حوله كافة جوانب الحياة ، من هنا فإن من العسير الفصل بين الامور التى يمكن ان توصف بأنها دينية والامور التى يمكن ان تعتبر خارج ذلك(٥) . وبعبارة اخرى فان بعض الباحثين يرى ان كلمة «الإسلام» اذا اخذت مطلقة فإنها تعنى «الدين: عقائد وعبادات وشعائر وتشريعات وفقه ، والتاريخ والمجتمع والحضارة، وكل ماأبدعته الحضارة الإسلامية من آداب وعلوم وفلسفة وكلام وتصوف، وفنون جميلة من موسيقى وتصوير وزخرفة وعمارة، وكل ماأسهم فيه المسلمون من ضروب الصناعة والزراعة والتجارة»(٦) . وعليه يمكن القول أن المفهوم الذى نعالج به «الإسلام» في هذا السياق يستند إلى كونه — الإسلام — نمط حياة في كليته يتمركز حول الدين الإسلامى ومن هذا المنطلق ولكى يكون الفرد جديراً باتباعه للدين الحنيف توجب عليه أن يظل دوما يتعلم ، ليس مجرد ممارسة الشعائر والعبادات وما يكتنفها بل كل

(٤) احمد فؤاد الاهواني : التربية في الإسلام (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨م) ، ص ٨ .

(5) Adams, C.J.; Islamic Religious Traditions - in: Binder, L. (ed.); The Study of the Middle East, (New York : John Wiley, 1976), P. 29.

(٦) محمد توفيق حسين : الإسلام في الكتابات التربوية ، عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد

الثاني ، سبتمبر ١٩٧٩م ، ص ٥١٠ .

ما يتعلق بالجياة ويسهم في ارتقاء سلوكه بما يؤدي إلى النجاح في الدار الدنيا والفلاح في الآخرة . نخلص من ذلك إلى أن تعاليم الإسلام الحنيف متمثلة . .
- في المقام الأول- في مصدرية الرئيسيين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، تحض المسلمين على التعلم كما وأنها تدعوهم إلى تعليم غيرهم . ولكن أى تعليم وأى تعلم ؟ نبادر إلى الاجابة بأنه تعلم وتعليم الدين علما وعملا إذ أن ذلك يؤدي إلى صلاح المرء وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة . في ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » (٧) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أننا نستخدم مصطلح « التعليم » في هذه الدراسة وليس « التربية » باعتبار أن « التعليم » في الإسلام أعم وأشمل من « التربية » . استنادا إلى مدى تواتر كلمة « يعلم » ومشتقاتها في القرآن الكريم باكثر من كلمة « يربي » ، حيث لم ترد الأخيرة الا في موضعين من القرآن الكريم هما « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » (٨) . وقال « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين » (٩) ومن سياق الآيتين الكريميتين يفهم أن المقصود بالتربية هي عملية الرعاية والتنشئة للوليد قبل أن يشب عن الطوق ، وعادة ماتخذ تلك العناية الصورة المادية من مأكلا وملبس ومأوى . أما الجهد الذى يبذل للوصول إلى الرشد والنضج ومن شأنه تحقيق الأهداف فهو الذى يطلق عليه التعليم ، ومن ثم فهو أوسع وأعم .

ولعل تكليف الرسول عليه الصلاة والسلام بتعليم المؤمنين وما نزل في ذلك من آيات لأصدق دليل على ذلك . « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (١٠)

(٧) عمدة القارى : شرح صحيح البخارى ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

- عبد الفتاح جلال : من الاصول التربوية في الإسلام (سرس الليان : المركز الدول للتعليم

الوظيفي للكبار ، ١٩٧٧م) ص ١٦ - ١٧ .

(٨) سورة الاسراء : آية ٢٤ .

(٩) سورة الشعراء آية ١٨ .

(١٠) سورة البقرة : آية ١٥١ .

ويأمر الله رسوله بطلب الاستزادة في العلم « وقل رب زدني علما » (١١) ولذا كان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام « اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال » (١٢) .

على أن مصطلح التعليم في هذا السياق لا يقصد به فقط مجرد الجوانب المعرفية كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل إنه يمتد ليشمل تعلم المهارات المختلفة ، والاتجاهات التي من شأنها صلاح شأن الفرد والمجتمع . هذا فضلا عن أن التعليم بمفهومه الإسلامي يؤكد على وظيفة ما يعلمه الفرد ، أي أن جدوى موضوع التعليم إنما تقاس بمدى ما ينعكس على سلوك الفرد . ولعل أبلغ دليل على ذلك إيراد العلم مقرونا بالعمل أي المعرفة مقترنه بالسلوك الفعلي في كثير من المواضع في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . مثال ذلك استهجان القرآن لأولئك الذين لا يترجمون ما يعلمون إلى سلوك « كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » (١٣) و « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (١٤) .

والمتدبر لمعاني القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة يلمس أن كلا المصدرين الرئيسيين للتعليم الإسلامي لا تركز فقط على المعرفة المجردة بل أنها - كمصادر للتعليم - تغرس في المتعلمين وتنمي فيهم اتجاهات معينة مرغوب فيها دينيا ، كذا فإنها تزود المتعلمين - نفعي المسلمين - بأساسيات المهارات في مختلف صورها وذلك كله بغية ان تكون شخصية المسلم شاملة متكاملة ، وأن تكون دنياه سعيا وجهدا يكفل له السعادة فيها وفي الآخرة .

من هنا يمكن القول أن مفهوم التعليم في الإسلام يبدأ بتعلم المسلم القراءة والكتابة باعتبار ذلك سبيلا إلى سهولة تحصيل عنصر هام من عناصر الدين وهو القرآن (١٥) . وكما يذكر القابسي فإن الغرض الأول من التعليم هو معرفة

(١١) سورة طه : آية ١١٤ .

(١٢) تفسير الألوسي جزء ١٦ ، ص ٢٤٢ .

(١٣) سورة الصف : آية ٣ .

(١٤) سورة البقرة : آية ٤٤ .

(١٥) احمد فؤاد الاحواني : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

القرآن والصلاة ، أى معرفة الدين علما وعملا . « وعندما أمر الإسلام المسلمين بالتعبد حرص أن يكون ذلك عن فهم ووعى وتبصر وعلم ، وإلا انتفى الغرض من ذلك ، ومن هنا فقد أكد الرسول أن المكثّر من العبادة بغير علم مترلته أقل كثيرا من المسلم العالم ، فقال (قليل الفقه خير من كثير العبادة وكفى بالمرء فقها إذا عبد الله ، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه إنما الناس رجالان مؤمن وجاهل ، فلا تؤذ المؤمن ولا تخاور الجاهل)»^١ ولم يقتصر حض الرسول لاصحابه على طلب العلم الشرعى من خلال القرآن والسنة ، بل دعاهم إلى كل علم يفيد المسلمين ، حتى أنه أول ما قدم المدينة ، وسمع من زيد بن ثابت بضع عشرة سورة من القرآن ، وهو صغير السن أعجب به وأمره أن يتعلم لغة اليهود ، فقال (يازيد تعلم لى كتاب اليهود فإني والله ما آمن يهودى على كتابي) وفي رواية (إني أكتب إلى قوم فاخاف ان يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية) قال زيد فتعلمتها في سبعة عشر يوما» (١٦) .

ويتسع مفهوم التعليم أكثر ليشمل مهارات أخرى يمكن ان نستدل عليها - على سبيل المثال - مما ورد في رسالة عمر بن الخطاب إلى الولاة المسلمين بقوله «أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ماسار من المثل وحسن من الشعر» (١٧) وبإمعان النظر في فحوى الرسالة نلاحظ أنها توجب العناية بعملية تعليم الفرد تعليما متكاملا في ضوء خصائص البيئة وسمات النمط الحضارى الذى ينتمى اليه . وبعبارة أخرى يمكن القول أنه منذ العهد المبكر للإسلام أوليت عملية التعليم المتكامل التى ينجم عنها صقل طباع الأفراد وتنمية قدراتهم العقلية والحسية اهتماما متزايدا الأمر الذى أدى بالمسلمين بعد بضع قرون من بداية الدعوة إلى فتوحات وإسهامات حضارية لاتزال شواهدا ماثلة حتى الآن .

التعليم في صدر الإسلام :

بعد ان عرضنا لمفهوم التعليم في الإسلام نحاول في هذا الجزء القاء بعض

(١٦) سيد اسماعيل علي : اصول التربية الإسلامية (القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٦ م)

ص ٨٩ - ٩٠ .

(١٧) سعد مرسى احمد : تطور الفكر التربوى (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٠م) ، ص ١٠ .

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر وهو ضعيف الجامع الصغير للسيوطي ، ص ٨٧

الضوء على حالة التعليم في صدر الإسلام لا سيما من حيث أنماطه ومؤسساته .
ولغرض التحديد ومن أجل تيسير التقسيم في هذه الدراسة نذكر أن المقصود
بصدر الإسلام هي تلك الفترة الممتدة من عصر النبوة وحتى نهاية حكم الدولة
الأموية في مطلع القرن الثاني الهجري . ولكي نستطيع أن نتفهم أوضاع التعليم
في تلك الفترة يتعين أن نلم - ولو بصورة عاجلة - بخصائص المجتمع وفكره
ومنهجه في الحياة . لقد انعكست خصائص البيئة الطبيعية لشبه الجزيرة العربية
وأنماط العلاقات والنظم الاجتماعية لسكانها على حياتهم الثقافية - قبل الإسلام -
فصرفت أذهانهم إلى ملكة الشعر والبلاغة بقصد الخطابة للتفاخر بالأنساب أو
الدعوة للحرب أو السلم . على أن العرب - قبل الإسلام - أخذوا بالكهانة
والعرافة والعلوم التي شاعت في تلك العصور والتي تناسب طبيعة إقليمتهم وطبائع
أهله .

أما فيما يختص بشئون التعليم المنظم قبل الإسلام فيمكن القول أنه كان محدودا
للغاية ولا توجد دلائل تاريخية تشير إلى أن بلاد العرب كانت تعنى بتعليم أطفالها
القراءة والكتابة أو بالأحرى أساسيات المعرفة . وعليه فلم تكن القراءة منتشرة
بين العرب قبل ظهور الإسلام. ولذلك كان من أهم ما حرص عليه القرآن الكريم
حث الناس على القراءة وطلب العلم والتنويه بالمتزلة الرفيعة للعلماء . فلقد استهل
سبحانه وتعالى تعاليمه إلى الرسول الكريم بالأمر بالقراءة والعلم « إقرأ باسم
ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم
علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (١٨) . وقد نقل الرسول الكريم تعاليم ربه
إلى قومه فكان صلى الله عليه وسلم أول من عنى بعناية خاصة بتعليم العرب القراءة
والكتابة بأن عهد إلى أسرى بدر الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يعلم كل منهم
عشرة من أبناء المسلمين (١٩) .

ويرغم معرفة العرب - قبل الإسلام - بالكتاب كمكان لتعليم القراءة والكتابة

(١٨) سورة العلق : آية ١ - ٥ .

(١٩) انظر : احمد فؤاد الهماني : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

إلا أن الشواهد التاريخية تشير إلى أن هذه الكتابات لم توجه نحو تحفيظ القرآن في العهد المبكر للإسلام . وبدلاً من ذلك كان الناشئة يندسون بين الكبار في مجالسهم وحلقاتهم وتلقى بعضهم القرآن من آبائهم أو ذويهم أو من مدرسين خصوصيين لهذا الغرض . وبالتدريج ونتيجة للنهي عن اتخاذ المساجد أماكن لتعليم الأطفال ، بدأت الكتابات تضطلع بهذه المهمة وازداد عددها بصورة ملحوظة لا سيما في القرن الثاني الهجري (٢٠) .

أما محتوى التعليم بهذه الكتابات فلقد تفاوت نسبياً من بلد لآخر في نطاق الدولة الإسلامية ، ولكن كما يورد بن خلدون في مقدمته (٢١) ، أن الدراسة اشتملت على القرآن وأحاديث الاختيار وبعض الأحكام الدينية ومبادئ الحساب وبعضاً من قواعد اللغة العربية ، هذا إلى جانب تعليم القراءة والكتابة والخط . هذا ولقد استندت الثقافة العربية في عصر صدر الإسلام أي في القرن الأول الهجري (السابع للميلاد) إلى تدعيم أركان الدعوة الإسلامية ومن ثم فلقد بدأت تبشير نهضة تعليمية دعامتها العلوم الدينية مثل الدراسات القرآنية والحديث والفقه والشريعة . كما اهتم العرب في هذه الفترة - بالإضافة إلى تلك العلوم النقليّة - بالعلوم اللسانية ممثلة في علوم اللغة والنحو والبيان والأدب وما إلى ذلك .

ولقد كان استقرار الحياة الاجتماعية هو الباعث الأساسي لمثل هذه النهضة . فبعد أن كان العرب قبل الإسلام يمثلون جماعات غير مستقرة اجتماعياً بدءوا في ظل الدولة الإسلامية يتمتعون بنوع من الاستقرار والتنظيم أتى به الإسلام ونجم عنه تلك الإزدهار والاهتمام بالعلوم العلمية والتعليمية والتي أضحت ركيزة أساسية من ركائز الحضارة الإسلامية .

وإذا ما انتقلنا إلى تحليل نمط التربية في هذا العصر ، أمكن القول أن أهداف ووسائل التربية الإسلامية قد اختلفت عن غيرها من أساليب التربية التي كانت

(٢٠) عبد الفتاح أحمد حجاز : التربية والمجتمع العربي عبر العصور : بحوث المؤتمر الفكري الثاني

للتربويين العرب ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ١٨ .

(٢١) عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن

عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - المقدمة (القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٩٥٨ م) ،

ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

سائدة في الحضارات الاخرى هذا وبالرغم من أن الإسلام قد اتسع لكافة الاتجاهات الثقافية في هذه الحضارات إلا أنه اثبت أن نمط التربية فيه يقوم على خصائص واضحة المعالم . ذلك أن نمط التربية الإسلامية يجمع بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم دون تضحية بأى جانب منها في سبيل غيره من الجوانب (٢٢) .

هذا ويجب ان يؤخذ في الاعتبار أنه لم تكن هناك مؤسسات تعليمية منظمة بمفهومنا الحالي ، ولكن كانت عملية تعليم الفرد موكلة إلى الأسرة والكتاب أحيانا والمسجد والمجتمع ككل . وفيما يتعلق بالنواحي العقلية والثقافية فلقد كان الكتاب يمثل المؤسسة الرئيسية التي يمكن ان يذهب اليها الصبي لتلقى العلم . والواقع أنه لم تكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل في الانتظام بالكتاب ، هذا فضلا عن أن الالتحاق لم يكن له صبغة إلزامية ، وإنما كان الأمر متروكا لتقدير الآباء . على أن السن المعتادة التي كان يلتحق عندها الطفل بالكتاب هي بين الخامسة والسابعة ، أما السن التي ينتهي عندها تعلم الصبي في الكتاب فلم يكن لها حدا أعلى . هذا ولقد سبقت الإشارة إلى محتوى التعليم في الكتابات والتي انتشرت في سائر ربوع الدولة الإسلامية (٢٣) ، وإن كان من الجدير هنا الإشارة إلى ان التعليم بها كان حرا بمعنى أن الحاكم لم يكن له سلطان عليها بل كان الصبية يتلقون التعليم نظير أجور عينية أو نقدية يدفعها أولياء أمورهم إلى معلم الكتاب .

بالإضافة إلى ذلك فإن المسجد بدوره كان يمثل مؤسسة تعليمية علاوة على كونه مكانا للعبادة حيث يجلس طلاب العلم على شكل حلقة حول الشيخ حيث يعلمهم ويفقههم في أمور ودينهم دنياهم . ويلوح أن اتخاذ المسجد كمكان للتعليم يعزى إلى ان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجلس إلى اصحابه في المسجد

(٢٢) احمد فؤاد الاهواني : مرجع سابق ، ص ١٠ .

انظر كذلك محمد قطب : منهج التربية الإسلامية (بيروت : دار الشرق ، د.ت) .

(٢٣) احمد شابي : تاريخ التربية الإسلامية (بيروت : دار الكشاف ، ١٩٥٤م) ص ٣٣ .

يعلمهم أمور الدين ، وحذا المسلمون حذوه بعد ذلك وصاروا يبنون المساجد في كل ربوع دولتهم ويتخذونها أماكن للتعليم أيضا . ولم يكن بالضرورة اقتصار التعليم على حلقة واحدة بالمسجد بل كانت الحلقات تتعدد وتكبر أو تصغر وفقا لسمعة الأستاذ وقدره . وعلى سبيل المثال فلقد كان جامع عمرو بن العاص يضم نحو أربعين حلقة دراسية للتعليم يؤمها الطلاب للبحث والدراسة ، وكان من أهمها حلقة الإمام الشافعي (٢٤) .

ومن الظواهر الأخرى الجديرة بالذكر في هذا الصدد الرحلة في طلب العلم — في هذه العصور — ويتمثل فضل الارتحال في أن الدراس يطوف بمناطق جديدة فيشاهد أحوال الشعوب وتقاليد الناس وعاداتهم وتفاوت طباعهم ، ويتصل بعلماء وشيوخ بعينهم يأخذ عنهم ويتلقى العلم عليهم الأمر الذي يؤدي إلى كثرة الاطلاع ووفرة الثقافة واتساع دائرة الفكر .

هكذا كان نمط التعليم بالنسبة للراغبين فيه من العامة ، أما الأمراء والأغنياء ووجهاء القوم فكانوا يتخذون لابنائهم معلمين خصوصيين ، وكان الوالد يشترك مع المعلم في تحديد مايدرسه ابنه وكانت التسمية التي تطلق على المعلم من هذه الفئة هي « المؤدب » وكان العرب يقولون عن ذلك الذي ينشئ الولد ويرعاه المؤدب والمهذب والمربي والمعلم ، غير أن لفظة « المؤدب » أشيع لأنها تفيد الرياضة والسياسة وتدل على العلم والاخلاق معا (٢٥) . فضلا عن ذلك فلقد كان العلماء يستضيفون طلاب العلم في منازلهم حيث يؤمها مريدو هؤلاء العلماء ومن يريد أن يتعلم عليهم . ولقد اوضحت بيوت العلماء أماكن للتعليم والدراسة اقتفاء لما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام حينما اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانا يعلم فيه المسلمين .

ومما تجدر الإشارة اليه أن العلماء والمعلمين في ذلك العهد كانوا يقومون بمهمة التعليم طلبا للثواب من الله ، فلم تدفع لهم الدولة رواتب وكان من يأنس في نفسه القدرة على تثقيف غيره يجلس في المسجد مختارا أو في بيته ويأتيه الراغبون في العلم

(٢٤) محمد عطية الابراشي : التربية الإسلامية (القاهرة : الدار القومية ، ١٩٦٤م) ص ٥ .

(٢٥) أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٩م) ص ٣٩ - ٤٠ .

واستمر هذا الوضع سائدا حتى بدأ تدخل الحكومات في التعليم وإنشائها معاهد خاصة له وقيامها بتعيين معلميه الأمر الذى سنلمسه بجلاء عند عرضنا لأوضاع التعليم في عصر ازدهار الدولة الإسلامية .

التعليم في عصر ازدهار الدولة الإسلامية :

بدأت المدينة العربية في الاستقرار — بصفة خاصة — بعد أن هدأت حركة التوسع والفتوح التى سادت العصر الأموى . ولذلك فلقد اتسمت الحياة في الدولة العباسية (١٣٢-٥٦٦هـ) لاسيما في عصرها الأول بانتشار وعمق الثقافة وانتظام الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومن ثم أطلق على تلك الفترة العصر الذهبي للدولة الإسلامية . ولقد كان لانتشار الإسلام في البلدان التى فتحها العرب أثره الكبير في ظهور جيل من ابناء الفرس والروم وغيرهم نشأ مسلما واصبح يجيد العربية ، وجمع إلى جانب ذلك ثقافة آبائه بلغتهم الأمر الذى نجم عنه قدرة هذه الاجيال على إنتاج ماكان يكتبه آباؤهم مضافا اليه وباللغة العربية .

هذا ولقد قام الخلفاء العباسيون بما يمكن ان يطلق عليه تحويل الدولة الإسلامية من مرحلة العشائرية إلى المرحلة المنطقية أو المدينة ، فأقيم النمط الإدارى للدولة على نسق ماكان في الدولة الساسانية وتزايدت اعداد المكاتب والمصالح الحكومية وأصبحت وظائفها اكثر وضوحا ودقة ونظمت الإجراءات المالية والادارية حيث كانت تضطلع بها نحو اثنتا عشرة مصلحة أو ديوانا ، للحرب وشئون البلاط والخزانه والمواصلات والأمن الداخلى ، وما إلى ذلك وكان الوزير يرأس رؤساء هذه الدواوين (٢٦) .

هذا ولقد تفرد العلماء والمتعلمون في هذا العصر بمكانة اجتماعية مرموقة وحظوا من جانب المجتمع بكافة شرائحه — سواء الحكام أو المحكومين ، بالإكرام والتوقير الأمر الذى نجم عنه اطلاق القدرات والطاقات الابداعية — وفي شتى المجالات — لدى الكثيرين . هكذا يمكن ان نلمس مدى الاختلاف — حضاريا — بين الدولة الإسلامية في بدايتها ، وخصائص ما أصبحت عليه في عهد الدولة

(26) Levy, R.; Sociology of Islam, (London, 1933), PP. 187-342.

العباسية لاسيما في عصرها الأول إذ تمخض الاحتكاك بالشعوب الاخرى ومعاشتهم لاسيما أصحاب الحضارات العريقة منها كالفرس والروم إلى ازدهار في الحضارة الإسلامية التي استطاعت ان تستوعب خصائص ما اقتبسته من تلك الحضارات وتصهره في بوتقتها، وكان السبيل إلى ذلك هو الفكر والعلم والتعليم، ومن ثم الوثبة التي نلمسها في عرضنا لمظاهر التقدم في هذه المجالات .

وكما سبقت الإشارة فلقد غلب على ميدان الفكر والعلم - في عصر صدر الإسلام - الطابع النقلى والتركيز على العلوم الدينية واللسانية فحسب بمعنى أن العلوم العقلية لم تحظ بقدر كبير من اهتمام المفكرين في ذلك العهد. أما في العصر العباسي فلقد اجتذبت تلك العلوم العقلية الكثير من العلماء الذين طفقوا ينقبون عن أصول تلك المعارف وقواعدها فيما تركه الاسلاف . وأضحت طريقة الدراسة واسلوب البحث هما الفيصل بين مجموعتي العلوم النقلية والتقليدية والعلوم العقلية ، فبينما اعتمد أصحاب المجموعة الاولى على الرواية وصحة السند أخذ اصحاب المجموعة الثانية بتحكيم العقل أى سبيل المنطق أو التجريب العملى . كما وأن من أبرز ما يميز الحركة العلمية في عصر الدولة العباسية الاهتمام بالترجمة والتي ازدهرت وشملت العديد من المجالات ومن ثم اسهمت في التقدم الثقافي .

ومما اتسمت به الحركة العلمية في العصر العباسي ايضا تلك الحرية الفكرية والاكاديمية والتي كانت عاملا هاما من عوامل النهضة العلمية الأمر الذى بدأ بوضوح في إنتاج علماء ذلك العصر ، والذين لم يبرعوا في المجال العلمى نتيجة للصدفة أو العفوية ، بل استنادا إلى قواعد ثابتة وتنظيم عقلى منهجى هو محك رسوخ العلم وأصالته لدى علماء المسلمين .

ولقد حرصت التربية في العصر العباسي والمبنية على التقاليد الإسلامية على الجمع بين التربية الدينية والخلقية والجسمية والعقلية دون توضحية بأى جانب لحساب جانب آخر . وبالرغم من هذه التقاليد التربوية المميزة إلا أنه يجب الأخذ في الحسبان أنه لم يكن هناك نظام تعليمى متكامل - بالمعنى الحديث - ومن ثم لم تكن هناك مراحل تعليمية محددة ، وإنما كان بوسع المتعلم أن يلتحق بالكتاب

أو يتشقف على أيدي معلمين خصوصيين ، ثم بإمكانه حضور حلقات العلم في المساجد والاطلاع بنفسه على إنتاج قرائح العلماء كما تضمها مؤلفاتهم في المكتبات التي انتشرت بصورة ملموسة في ذلك العصر . وبعبارة أخرى يمكن القول أن التعليم في ذلك العصر كانت تغلب عليه المسحة الذاتية وطابع عدم الانتظام (٢٧) . ويتضح ذلك إذا ما علمنا أن مؤسسات التعليم لم تكن متجانسة في جملتها ، فكان لكل منها طرائقة وأساليبه ومحتواه . فبالنسبة للكتاتيب كان بعضها يهتم بتعليم القراءة والكتابة ، وبعضها يهتم بتحفيظ القرآن والحديث . وأيضا في المساجد كمؤسسات تعليمية كانت هناك حلقات دراسية مختلفة الألوان والمجالات فمن حلقة فقه إلى حلقة نحو ، وثالثة للحديث والرابعة لرواية الأخبار أو التاريخ . . وهكذا .

ولقد كان التعليم حرا بمعنى أنه لم يكن خاضعا للدولة فيما يتعلق بالإشراف أو الاتفاق عليه . من هنا فقد يدفع الطالب للشيخ أجرا على ما يتعلم منه ، وقد يعلم المعلم ابتغاء الثوبة وأكثر ما كان ذلك في العلوم الدينية . كذلك لم تكن هناك طبقية في التعليم بمعنى أنه لم يكن مباحا لفئة ومحظورا على أخرى ، ولذلك فلقد نبغ كثير من العلماء والادباء ممن ينتمون إلى أصول اجتماعية متواضعة وليسوا من ذوى الثراء (٢٨) . وبالإضافة إلى ذلك فإن من ملامح التعليم في ذلك العصر أنه لم تكن هناك درجات علمية معينة تمنح للطالب بعد إتمام الدراسة بمعنى أن الامتحان كان امتحان الرأي المحيط به من قبل المتعلمين والعلماء . وبالنسبة لمحتوى التعليم وبرامجه فلقد تنوعت واختلفت باختلاف الغرض الذي يرمى إليه المتعلم ، فمنهج من يعد نفسه ليكون « كاتبا » يغاير منهج من يكون « محدثا » وكلاهما يختلف برنامج تعليمه عن برنامج من أراد أن يكون « طبيا » مثلاً أو « فيلسوفا » هذا ولقد اتسم هذا العصر أيضا برحلة المتعلمين والعلماء طلبا ونشرا للعلم ، بغض النظر عما يواجهونه من عناء ومشقة . ولقد كان للاعتقاد بأن طلب العلم جهاد ومن مات في سبيله مات شهيدا ، كان لذلك أثره الواضح في

(٢٧) عبد الفتاح احمد حجاج : مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٢٨) احمد فؤاد الاهواني : التربية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

حفز المعلمين والعلماء على التنقل والترحال من مكان لآخر لطلب العلم ونشره .
وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى نشأة المدارس كمؤسسات تعليمية منظمة .
ويعود الفضل في إقامة المدرسة كمؤسسة تعليمية إلى أهل نيسابور ، ولكن التوسع فيها يعزى إلى جهد الوزير السلجوقي نظام الملك الذى أنشأ المدرسة النظامية في بغداد ٤٥٨هـ كما أنشأ العديد من المدارس بكافة أنحاء العراق (٢٩) . وبعد ذلك انتقلت فكرة إقامة المدارس إلى الشام ومصر ومن ثم إلى باقي أرجاء الشرق وبانشاء المدارس بدأ النظام التعليمى الإسلامى يدخل مرحلة تمام نموه وتطوره ، فقد أصبحت المدارس مؤسسات رسمية تابعة للدولة يتخرج فيها أولئك الذين يلتحقون بخدمتها (٣٠) . ولقد أضحت الدراسة تسير وفق قواعد ولوائح شبيهة - إلى حدما - بممارساتنا الحالية مستندة إلى تنظيم ملموس في كافة جوانبها مثل حضور التلاميذ وانصرافهم ، والبرامج التعليمية والمكتبية والأجازات والامتحانات ، وشئون المعلمين وما إلى ذلك .
ولكى تكتمل الصورة التى آلت إليها شئون التعليم والثقيف في ذلك العصر ، نذكر أنه نتيجة لرفاهية الدولة وتشجيع حكامها للعلم والعلماء ، فإن المكتبات انتشرت بصورة ملحوظة ولقد كانت المكتبات تمثل نواة الجامعات الإسلامية المبكرة كبيت الحكمة في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة ، أى ان المكتبات في العالم الإسلامى في تلك العصور كانت تقوم بمهمة المعاهد العلمية في العصر الحديث بالإضافة إلى ما تؤديه دور الكتب في الوقت الحاضر من خدمات (٣١) ولعل ما هو متواتر من أن احدى مدن هراسان كان بها عشر دور للكتب تحوى احداها ١٢٠٠٠ مجلد في مختلف فروع العلم والمعرفة ، مايم عن مدى الاهتمام بالمكتبات وأثرها (٣٢) .

(٢٩) احمد أمين : ضحى الإسلام - الجزء الثاني (القاهرة : لجنة لتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢م) ، ص ٤٩ .

(٣٠) كتاب الشعب : بيوت الله ، مساجد ومعابد ، الجزء الثاني رقم ٧٨ (القاهرة : مطابع الشعب ، ١٩٦٠م) ص ١٩٩ .

(٣١) احمد شلبي : مرجع سابق ، ص ١١٩ .

(٣٢) سعد مرسى احمد : مرجع سابق ، ص ١٧٧ .

ووفقا لما تقدم يمكن ان نتبين التغير الذى طرأ على نمط التعليم الإسلامى واساليبه نتيجة للتغيرات التى حدثت بالمجتمع . ووفقا للقاعدة الطبيعية المعروفة من أن لكل فعل رد فعل بدأت الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس تقريبا في التفكك والانقسام ، ليس من الناحية السياسية والإدارية فحسب بل ايضا من الناحية الحضارية ككل الأمر الذى ترك بصماته على العلم والتعلم مما سنعرض له فيما بعد .

التعليم في عصور الاضمحلال :

أخذ التماسك الذى كان يمثل أهم سمات الدولة الإسلامية وعلى مدى نحو ثلاثة قرون يتلاشى لتحل محله النزعات الاقليمية والعنصرية ، الأمر الذى تمثل في قيام العديد من الدويلات المستقلة مثل السامانية في بخارى والحمدانية في شمال العراق وسوريا وال طولونية ثم الإخشيدية بمصر هذا فضلا عن الدولة الأموية بالأندلس (٣٣) . ولقد أدت الحركات الانفصالية إلى إذكاء روح التنافس بين الأقاليم المختلفة واصطبغت هذه المنافسة في كثير من الأحيان بصبغة دينية وسياسية بمعنى أن الحكام في الممالك المستقلة استغلوا العلوم والآداب في الترويج لمذاهبهم السياسية والدينية . ومن أمثلة ذلك ما اتسمت به هذه الحقبة من خلاف بين السنة والشيعة . ويحكى ياقوت في معجم البلدان « أن بلاداً كثيرة خربت بسبب الخلاف في المذاهب وتعصب كل لمذهبه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان الخلاف شديدا بين الشيعة والسنية ، فالخلفاء العباسيون ومن يتبعهم سنيون يتعصبون للسنية ، والفاطميون في مصر والشام والمغرب ، والحمدانيون في ديار ربيعة وبكر ومضر وبنى بويه في العراق وغيرهم يتشيعون » (٣٤) .

تلك صورة من صور الضعف الذى حل بهذه الدولة ، ولا يمكن للفكر أن ينمو ويزدهر وسط هذا الجو اللهم إلا مجالس المناظرات التى كان يتنافس في إقامتها الأمراء فخرا بساطتهم . ولقد كان المسجد يعتبر أهم معاهد التعاليم والثقيف

(٣٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام - الجزء الرابع (القاهرة : ١٩٦٤م) ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٣٤) احمد أمين : ظهور الإسلام - الجزء الثاني ، ص ٥ .

لاسيما بالنسبة للعلوم الدينية واللغوية إلا أن المساجد - في تلك العصور - فقدت هذه الوظائف وأصبح دورها قاصرا على إقامة الشعائر والعبادات . بيد أن بعض المساجد البارزة هنا وهناك في الدويلات المختلفة احتفظت بدورها كمعاهد للعلم والثقافة . ففي مصر - على سبيل المثال - كان مسجدا عمرو بن العاص وابن طولون من أهم المراكز الثقافية . ثم أصبح الازهر في العهد الفاطمي يتمتع بتلك المكانة ولم يلبث أن تحول إلى جامعة يتلقى فيها طلاب العلم الكثير من فروع المعرفة والدراسة . وفي المغرب كان مسجد القرويين هو الآخر من أبرز مراكز الثقافة والتعليم .

هذا ومن المؤسسات التعليمية التي ميزت تلك الفترة ذلك التوسع الملحوظ في إقامة المدارس التي انتشرت في غالبية الدويلات الإسلامية . وكان بعضها يقوم على التعليم فيه نفر من أئمة الفكر من أمثال الإمام الغزالي . أما فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية ودراساتها فلقد كانت المارستانات أهم مراكزها . ولقد كانت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية بوجه خاص . ومن أحسن الامثلة لذلك المارستان الذي أقامه بن طولون في أرض المعسكر وأدخل عليه ضروبا من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في عصره . وكذلك مارستان بغداد الذي أقيم في عهد الخليفة المكتفي سنة ٣١١هـ . كما أن الأيوبيين بمصر والموحدين بالمغرب قد أقاموا عددا من المارستانات بغرض دراسة العلوم الطبية ونشر الثقافة في العلوم الطبيعية المتصلة بها .

وفيما يتعلق بمؤسسات التثقيف الأخرى فلقد كانت المكتبات تأتي على رأس القائمة وقد عمد الأمراء والسلاطين إلى إقامة المكتبات واستخدام المترجمين واقتضاء المؤلفات في شتى فروع المعرفة والعلم لاسيما منها ما يمتشى مع مذاهبهم وافكارهم . ومن ثم فلقد تنوعت وتعددت مثل هذه المصادر ، الأمر الذي أفاد محبو الدراسة والاطلاع . ولقد برزت من بين تلك المكتبات ما كان قائما منها في الأندلس والعراق ومصر .

أما فيما يتعلق بحالة الثقافة والتعليم خلال قرون الحكم التركي لأجزاء الوطن العربي فلقد أجمعت الكتابات التاريخية بأن هذه الفترة تعتبر من أسوأ فترات التاريخ

العربي في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ومن ثم الفكرية والتعليمية . ولقد كان من غير المعقول وعامة الشعب يعانون من حرمان في الحاجات الأساسية ويفتقدون الأمن . أن يسعوا في طلب العلم أو يجدوا في التعلم . من أجل هذا تخلف العلم والتعليم في معظم أنحاء الوطن العربي إلى حد بعيد .

ظلت الامور تسير على هذا النحو سواء في النواحي الاجتماعية عموما أو في نواحي التعليم والثقيف بوجه خاص . وفي تلك الاثناء أى في نحو الثلاثة أو الأربعة قرون التي خيم خلالها الفساد والتأخر على أرجاء المشرق العربي ، كانت الحياة في الغرب الأوربي تزدهر وتتطور معتمدة - إلى حد كبير - على منجزات العالم الإسلامى خلال فترة ازدهاره . ولقد تمخضت فترة عصر النهضة في أوربا وما استتبعها من بعث فكرى وإصلاح دينى وتطور اقتصادى إلى السعى للتوسع والسيطرة وتمثل ذلك في حركة الاستعمار الاوربي الحديث .

ولقد نجم عن ضعف الامبراطورية العثمانية وقوع العالم العربي في القرن التاسع عشر فريسه للاستعمار الأوربي لاسيما على يد كل من إنجلترا وفرنسا . ولقد عمدت القوى الاستعمارية إلى غرس وتنمية ثقافاتها والمباعدة بين أبناء الوطن العربي وبين تراثهم الفكرى والروحى وذلك بهدف قمع أى اتجاه تحررى . وحينما تم لأجزاء الوطن العربي التحرر من ربة الاستعمار الاوربي وجدت نفسها وقد تخلفت - بصورة واضحة - عن ركب الحضارة وهى من صناعاتها وواضعى أصولها . وبدأت المحاولات التى استهدفت تعويض تلك الفجوة بالاعتماد على إعادة النظر في نظم التعليم باعتباره ركيزة البناء الحضارى .

وهنا ثار ولازال يشور التساؤل أى تعليم هو الذى ينبغي أن نأخذ به ؟ ونبادر إلى الإجابة بأنه نمط التعليم المستمد من ماضينا وتراثنا والمتفق مع ظروفنا وواقعنا والمحقق لأمانينا واهدافنا . وبعبارة أخرى يمكن القول أنه نمط التعليم الذى يجمع بين الأصالة ممثلة في إيجابيات تراثنا الحضارى والفكرى وما أكثرها ، والمعاصرة ونعنى بها قواعد ونتاج ما يحيط بنا من مظاهر الحياة الحديثة (٣٥) .

غرباء في بيوتنا :

في دراسة للمستشرق البريطاني « جيب » GIBB يقرر قائلا « لم أر كتابا واحدا كتبه عربي في اى فرع باى لغة غربية يمكن عن طريقه للدراس الغربي ان يفهم جذور الثقافة العربية . وأكثر من ذلك ، لم أر كتابا كتب بالعربية للعرب أنفسهم يحلل بوضوح ماتعنيه الثقافة العربية للعرب » (٣٦) . ولازال مثل هذا الرأى يلقي القبول لدى الكثير من الغربيين لاسيما منهم أولئك المهتمين بمثل هذه الأمور ولعل من أبرز اسباب القصور لشرح وتحليل أسس وخصائص حضارتنا ، عدم الدراية من جانب الكثيرين بأصول وتطور ومنجزات حضارتنا السابقة . ولانبالغ إذا ما ادعينا ان مثل هذا الجهل يعزى - إلى حد بعيد - إلى نظم التعليم وأنماط التربية المليئة بالثغرات ونواحي القصور .

إن أبرز ما كان يميز أسلافنا هي تلك النظرة العقلية التي نظروا بها إلى الامور من حولهم . فاذا كان الأمر هكذا وأردنا مواصلة السير على هدى من تراثنا نربط حاضرا بماض ، لزمنا علينا النظرة نفسها تجاه عالمنا ، وان لم نتشابه مع أسلافنا فيما نظروا اليه من مشكلات ومساائل (٣٧) .

هذا واذا كنا بصدد بحث دور التعليم في بعث الشخصية الحضارية الإسلامية ، توجب علينا أن نعرض ولو بصورة سريعة للأهداف العليا للمجتمع الإسلامى . تتمثل أبرز هذه الاهداف في السعى للصالح في الدنيا والآخرة بما يتضمنه ذلك من عمل الخير في إطار من الحرية والمساواة مع تعميق شعور الانتماء للأمة الإسلامية لدى الفرد . كما أن من الأهداف الأساسية الأخرى العمل على رفع مستوى الحياة بما يتضمنه ذلك من ضرورة التركيز على مفاهيم الأداء والعمل بأكثر من مجرد القول واللفظ . وفي ذلك يقرر أحد المستشرقين أنه ليس هناك لدى العربي المعاصر سمة موروثه يسعى لتغييرها مثل هذه السمة السيئة . وفي الحق فإنه لن يكون هناك

(36) Ireland, Ph.W. (ed.); The New East, Problems and Prospects, (Chicago, 1942), P. 60.

(٣٧) زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربي بيروت : دار الشروق ، (١٩٧٤م) ص ٣٠٧-٣٠٨ .

جانب من جوانب الحياة العربية سوف لا يستفيد من الاقلاع عن هذا الايغال في الأمور البيانية(٣٨) .

وطالما أننا بصدد مناقشة الاهداف فإن عملية التعليم ونمطها المنشود لا بد وأن تستند إلى فلسفة واضحة محددة المعالم تأخذ في حسابها خصائص وسمات الشخصية الإسلامية المستهدفة . وليس من شك في أن الامر - في ذلك الجانب - يتطلب استقراء وتحليل سمات الشخصية الإسلامية الأصيلة والتي نسعى - من خلال التعليم - لدعمها ، وكذا الخصائص والصفات السلبية التي شابتها لتجنبها والقضاء عليها فضلا عن الملامح الواجب توفرها في تلك الشخصية حتى تتكيف مع ذاتها ومع المجتمع .

في ضوء ذلك يجب أن يعنى التعليم بغرس وتنمية خصائص معينة لعل من أهمها التمسك بالقيم الروحية والخلقية . ولعلنا لا نجاوز الدقة اذا ما قلنا أن إسهام النظام التعليمى الرسمى في تنشئة الشخصية الإسلامية المنشودة هو بالضرورة أوفر وأعمق من إسهام أى نظام اجتماعى آخر . وعليه فإن مفتاح نجاح مؤسسات التعليم في قيامها بهذا العبء إنما يتمثل في ضرورة توفر المعلم المؤمن بدينه وقوميته ورسالته والقادر علميا على تنفيذ تلك المهمة الشاقة(٣٩) .

هذا ولعل مما تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد تلك الحيرة وذلك التردد في نظمنا التعليمية بين الأصالة والاقتباس . فتعليمنا يأخذ عن العالم الغربي الكثير من مناهجة وطرائقه وأساليبه دون محاولة تطويعها لخصائص وحاجات المجتمع الإسلامى ومتجاهلة في ذلك المقومات النفسية والاجتماعية والاقتصادية للشخصية الإسلامية . وسواء كان مضمون الأصالة في التعليم المسحة الابتكارية فيه أم جودته ، فإن عدم الملاءمة بين المناهج التعليمية وظروفنا الاجتماعية وبين غاياتنا ووسائلنا قد أدى إلى الكثير من المساوىء في ناتج العملية التعليمية ، كما تعكسه بعض السمات السلبية للمتعلمين .

(38) Von Grunebaum, G.E., Islam, (London: Routledge, Kegan Paul, 1961), P. 69.,

(٣٩) ابو الفتوح رضوان : التربية والقومية العربية ، في : اسس التربية في الوطن العربي (القاهرة : المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب او العلوم لاجتماعية ، ١٩٦١م ، ص ٤٥ - ٨١ .

إن تردد التعليم في العالم الإسلامي بين الأصالة والاقتباس يعزى - في المقام الأول - إلى مامرت به الامة الإسلامية من أحداث أدت إلى تأخر ثقافتها عموما وتوارى أصالتها . ولا تزال الدول الإسلامية - بصفة عامة - تحيط بها الأخطار الخارجية وتوزعها التحديات الاستعمارية والخلافات السياسية . بالإضافة إلى ذلك فإن الأمة الإسلامية تبدو حائرة بين تراثها القديم والمدنية الحديثة ، تعتز بماضيها وتفاخر الأمم بحضارتها التليدة وتعمل على إحيائها ، ثم تجد نفسها أمام حضارة أوربية تستهويها عجائبها وتفتنها مظاهرها ، فتبقى مضطربة حائرة . ولكن يكفي أن يتغلب المجتمع الإسلامي على الصعاب والعوائق التي تواجهه ، وأن يستثمر ثرواته البشرية والمادية ، وأن يحرر نفسه من السلبيات التي شابت الشخصية الإسلامية ، حتى يعود إلى ماكان عليه في الماضي من إبداع وابتكار وأصالة (٤٠) .

(٤٠) راجع : محمد قطب : منهج التربية الإسلامية (بيروت : دار الشروق ، بدون تاريخ) ،
انورالجندي : التربية وبناء الاجيال في ضوء الإسلام (بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٧٥م) .